منطلقات الصحوة الإسلامية وسبل المحافظة عليها

الإمام السيد علي الخامنئي دام ظله (١)

مدخل:

تعيش الأمّة الإسلامية في الوقت الراهن حالة من النهوض والوعي أدّت إلى تحوّل كبير بين شعوب المنطقة، وإلى انتفاضات وثورات لم تكن تستوعبها أبداً محاسبات الشياطين الإقليميين والعالميين.. ثورات عظيمة هدمت قلاع الاستبداد والاستكبار، وألحقت الهزيمة بحرّاسها.

إنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ التطوّرات الاجتماعية الكبرى تستند دائماً إلى خلفية تأريخية وحضارية، وهي حصيلة تراكم معرفي وتجارب طويلة. ففي الأعوام المائة والخمسين الماضية كان حضور الشخصيات الفكرية، والجهادية الكبيرة والفاعلة الإسلامية في مصر، والعراق، وإيران، والهند، والبلدان الأخرى الآسيوية، والإفريقية مقدّمة تمهيدية لهذا الوضع الحالي في دنيا الإسلام.

فما جرى في العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي الميلادي في عدد من البلدان، من تطوّرات أدّت إلى تولّي أنظمة تميل غالباً إلى مدارس فكرية مادية، وما تبع ذلك من تورّطها بمقتضى طبيعتها، بعد أمد، في شراك القوى الاستكبارية والاستعمارية الغربية، إنّما هو - أيضاً - من التجارب المليئة

(١) من كلمة لسماحته في افتتاح المؤتمر الدولي الأوّل للصحوة الإسلامية، في طهران، بتاريخ: ٢٦-٢٠١١/٩/٢٧م.

بالعبر، وممّا كان له سهم وافر في بلورة الأفكار العامّة والعميقة الحالية في دنيا الإسلام.

ويُعدّ ما شهدته إيران من ثورة إسلامية كبرى تحقّق فيها على حدّ تعبير الإمام الخميني العظيم قدس سره انتصار الدم على السيف، وإقامة نظام متجذّر، ومقتدر، وشجاع، ومتطوّر، متمثّل بالجمهورية الإسلامية؛ ذلك بالنظر للصحوة الإسلامية الراهنة، هو - أيضاً - يشكّل فصلاً مُسهباً يحتاج إلى بحث وتحقيق، وسيستوعب حتماً مساحة هامّة في تحليل الوضع الحالي لدنيا الإسلام وتدوينه.

والحصيلة أنّ الحقائق المتزايدة الحالية في دنيا الإسلام، ليست بالحوادث المنفصلة عن جذورها التأريخية وأرضيّتها الاجتماعية والفكرية، ولذلك من العبث أن يعمد الأعداء أو السطحيون إلى اعتبارها موجة عابرة وحادثة سطحية، وأن يحاولوا بتحليلاتهم المنحرفة والمغرضة إطفاء شعلة الأمل في قلوب الشعوب.

وأمام ذلك لا بدّ من الوقوف عند ثلاث نقاط أساسية:

- إلقاء نظرة مجملة على هوية هذه النهضات والثورات.
- معرفة الآفات والأخطار والعقبات الكبرى التي تقف في طريقها.
- اقتراحات بشأن مواجهة هذه الآفات والأخطار ومعالجتها.

هوية الثورات ومنطلقاتها:

إنّ أهمّ عنصر في هذه الثورات الحضور الواقعي والشمولي للشعوب في ميدان العمل وساحة النضال والجهاد، لا فقط بقلبهم وبعواطفهم وإيمانهم، بل - أيضاً - بأجسامهم وأقدامهم. فالفرق كبير وعميق بين مثل هذا الحضور، وبين انقلاب يقوم به جمع من العسكريين، أو مجموعة مناضلة مسلّحة أمام شعب لا يتفاعل معهم، أو حتى أن لا يكون راضياً عنهم. ففي حوادث العقدين الخامس والسادس من القرن الميلادي الماضي كان عبء الثورات في عدد من بلدان آسيا وأفريقيا لا تحمله الجماهير والشباب، بل تنهض به مجموعات انقلابية أو فئات صغيرة ومحدودة مسلّحة. فأولئك عزموا وأقدموا، ولكن حين غَيَّروا - هم

أو الجيل الذي تلاهم - طريقهم على أثر دوافع وعوامل عديدة، فإنّ الثورات قد انقلبت إلى ضدّها، وعاد العدو ليفرض سيطرته مرّة أخرى.

إنّ هذا يختلف كلّ الاختلاف مع تغيير تنهض به جماهير الشعب التي تندفع بأجسامها وأرواحها إلى الميدان، وتطرد العدو من الساحة.

وهنا فقط تصنع الجماهير شعاراتها، وتعيّن أهدافها، وتشخّص عدوّها، وتفضحه، وتتعقّبه، وترسم- ولو إجمالاً- مستقبلها، وبالنتيجة تقطع الطريق على الخواص المهزومين، والملوّثين، بل على عناصر العدو المندسّة؛ من أن يعمدو إلى الانحراف، ومداهنة العدو، وتغيير المسير.

إنّ التحرّك الجماهيري قد يؤدّي إلى تأخّر الانتصار النهائي للثورة، ولكنّه يبتعد عن السطحية، وعن عدم الثبات، وهو من مصاديق الكلمة الطيّبة التي قال عنها الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. فمن يشاهد التجمّع الجماهيري الضخم المقاوم للشعب المصري الفخور في ميدان التحرير يوقن أنّ هذه الثورة منتصرة بإذن الله. وهذا شبيه بما حدث بعد انتصار الثورة الإسلامية، وإقامة النظام الإسلامي في إيران، وما نزل على أثر ذلك من زلزال عظيم هزّ القوى الطامعة الشرقية والغربية، وما ولّده من موجة هائلة فريدة بين الشعوب المسلمة... وكنّا نتوقّع يومها أنّ مصر سوف تنهض قبل غيرها. والذي أثار في قلوبنا هذا التوقّع ما كنّا نعرفه عن مصر من تاريخ جهادي وفكري، وما أنجبته من شخصيات مجاهدة وفكرية كبرى. إلى أن جاء الوقت وتبلور العزم على الثورة، ونضج في أعماق الشعب المصري بالتدريج، وتجلّى بإذن الله وبحوله وقوته في الساحة بشكله العظيم.

كما أنّ تونس واليمن وليبيا والبحرين تجري على هذه القاعدة نفسها إن شاء الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[2].

ففي مثل هذه الثورات، الأصول والقيم والأهداف لم تدوّن في مشاريع

(١) إبراهيم، ٢٤.
(٢) الأحزاب، ٢٣.

مسبقة على يد الفئات والأحزاب، بل هي مدوّنة في أذهان كلّ أفراد الشعب المتواجد في الساحة، وفي قلوبهم وإرادتهم، ومعلَنَة ومثبَتَة في شعاراتهم وسلوكهم.

مبادىء الثورات الحالية ومرتكزاتها:

على ضوء ذلك يمكن بوضوح تشخيص مبادىء الثورات الحالية التي حدثت في مصر، وبقية البلدان، وهي تتجلّى بالدرجة الأولى في الآتي:

إحياء العزّة والكرامة الوطنية التي انتُهكت على يد الهيمنة الدكتاتورية للحكّام الفاسدين، والسلطة السياسية لأمريكا والغرب.

رفع راية الإسلام الذي يمثّل العمق العقدي والعاطفي للشعب، وتوفير الأمن النفسي، والعدالة، والتقدّم، والتفتّح؛ ما لا يتحقّق إلاّ في ظلّ الشريعة الإسلامية.

الصمود أمام النفوذ والسيطرة الأمريكية والأُوروبية التي أنزلت خلال أعوام خلت أكبر الضربات والخسائر والإهانات بشعوب هذه البلدان.

نضال الكيان الصهيوني الغاصب ودولته اللقيطة التي غرسها الاستعمار مثل خنجر في خاصرة بلدان المنطقة، وجعلها وسيلة لاستمرار سلطته المتجبّرة، وشرّد شعباً من أرضه التأريخية.

وممّا لا شكّ فيه أن تبنّي ثورات المنطقة لهذه المبادىء والمرتكزات، وسعيها لتحقيقها لا ينسجم مع رغبات أمريكا والغرب والصهيونية، وهولاء يبذلون ما وسعهم من جهد لينكروا ذلك، لكنّ الواقع لا يتغيَّر بإنكاره.

شعبية الثورات الحالية:

إنّ شعبية هذه الثورات هي أهمّ عنصر في تشكيل هويّتها. فالقوى الطامعة بذلت كلّ جهدها، ومارست كلّ أساليبها الملتوية؛ لحفظ الحكّام المستبدّين، والفاسدين، والتابعين في هذه البلدان، ولم تكفّ عن دعمهم إلاّ حينما انقطع أملها على أثر ثورة الجماهير وعزمهم.

من هنا فإنّ هذه القوى لا يحقّ لها أن تعتبر نفسها مساهمة في هذه الثورات. وفي بلد مثل ليبيا لا يستطيع تدخّل أمريكا والناتو أن يكدّر هذه الحقيقة. ففي ليبيا أنزل الناتو خسائر فادحة لا تعوّض. ولو لم يكن هذا التدخّل فإنّ انتصار الشعب الليبي كان من الممكن أن يتأخّر قليلاً، ولكن سوف لا ينزل بالبلد كلّ هذا الدمار في بُناه التحتية، ولا تزهق كلّ هذه الأرواح من النساء والأطفال، ولا يدّعي أولئك الأعداء الذين كانت يدهم لسنوات بيد القذافي بأنّ لهم حقّ التدخّل في هذا البلد المظلوم المُدمّر.

إنّ جماهير الشعب، والنخب الجماهيرية، والذين انطلقوا من الجماهير هم أصحاب هذه الثورات، والأمناء على حراستها، والذين يرسمون مستقبلها، ويدفعون بعجلتها إن شاء الله تعالى.

الأخطار المحدقة بالثورات الحالية:

إنّ الآفات والأخطار التي تترصّد الثورات الحالية موجودة ولا يمكن إنكارها، ولكنّ هناك - أيضاً - سبلاً للوقاية منها. فلا ينبغي أن تكون الأخطار مبعث خوف الشعوب، فالله تعالى يقول بشأن فئة من المجاهدين في عصر الرسالة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فلا بدّ من معرفة الأخطار والآفات؛ للوقاية من الحيرة، والترديد عند مواجهتها، ولنكون على معرفة مسبقة بتشخيص علاجها.

لقد واجه الشعب الإيراني هذه الأخطار بعد انتصار الثورة الإسلامية، وعرفها، وجرّبها، وخرج من أكثرها بسلام؛ بفضل الله، وقيادة الإمام الخميني قدس سره، ووعي الجماهير، وبصيرتهم، وتضحياتهم. طبعاً لا يزال الأعداء يحيكون المؤامرات، ولا يزال الشعب يقاوم بعزيمة راسخة لا تلين.

(١) آل عمران، ١٧٣.

ويمكن تقسيم هذه الأخطار والآفات إلى قسمين:

١. ما كان له جذور في الداخل، وينبثق من ضعف الجبهة الداخلية. ٢. وما كان نتيجة مباشرةً لتخطيط أعداء الخارج.

الأخطار والآفات الداخلية:

الشعور والظنّ بأنّ سقوط الحاكم العميل والفاسد والديكتاتور هو نهاية الطريق. والواقع أنّ هكذا شعور سوف يبعث على الارتخاء، وراحة البال، والغرق في نشوة النصر، وما يتبع ذلك من ضعف الدوافع، وهبوط العزائم.

تفاقم هذا الخطر حين يعمد أشخاص إلى الحصول على سهم خاص في الغنيمة، مثل ما جرى في «**معركة أُحد**»؛ حيث طمع المحافظون على مضيق الجبل بالغنيمة؛ ما أدّى إلى هزيمة المسلمين، واستحقاق الإدانة الإلهية.

الشعور بالخشية من الهيمنة الظاهرية للمستكبرين، والإحساس بالخوف من أمريكا وسائر القوى الطامعة. وتوقّي ذلك يكمن في طرد هذا الخوف من القلوب.

الثقَة بالعدو، والانخداع بابتسامته ووعوده ودعمه، خصوصاً في صفوف النخب وقادة المسيرة. فيجب معرفة العدو بعلاماته مهما تلبّس من لباس، وصيانة الشعب والثورة من كيده الذي يدبّره في مواضع خلف ستار الصداقة، ومدّ يد المساعدة. ومن جانب آخر قد يعتري الأفراد غرور، ويحسبون العدو غافلاً، فلا بدّ من اقتران الشجاعة بالتدبير والحزم، وحشد كلّ الإمكانات الإلهية في وجودنا؛ لمواجهة شياطين الجنّ والإنس.

إثارة الاختلافات، وخلق الصراعات بين الثوريين، والاختراق من خلف جبهة النضال. وتكمن المعالجة في التحلّي بالوعي والبصيرة؛ لتفويت الفرصة على الأعداء.

الأخطار والآفات الخارجية:

تولّي أمورَ البلاد عناصرُ تعتقد أنّ لها التزامات أمام أميركا والغرب.

فالغرب يسعي بعد السقوط القهري للعناصر العميلة أن يحافظ على أصل النظام والمحاور المفصلية للقدرة، ويضع رأساً آخر على هذا البدن، وبذلك يواصل فرض سيطرته. وهذا يعني إهدار كلّ المساعي والجهود، وفي هذه الحالة إن واجهوا مقاومة الجماهير ووعيها؛ فسوف يسعون إلى بدائل انحرافية أخرى يضعونها أمام الثورة والجماهير. وهذه البدائل يمكن أن تتمثّل باقتراح نماذج للحكم والدستور تدفع بالبلدان الإسلامية مرّة أخرى إلى شراك التبعية الثقافية، والسياسية، والاقتصادية للغرب، ويمكن أن تتمثّل في اختراق صفوف الثورة، وتقديم الدعم المالي، والإعلامي لتيار مشكوك، وعزل التيارات الثورية الأصلية. وهذا يعني - أيضاً - عودة تسلّط الغرب، وتثبيت النماذج الغربية التي أكل الدهر عليها وشرب، والغريبة على مبادئ الثورة، وبالتالي السيطرة على الأوضاع.

ولو أنّ هذه الخطط لم تفلح بأجمعها فإنّ التجربة تقول إنّهم سيعمدون إلى أساليب منها: إثارة الفوضى، والاغتيالات، والحرب الداخلية بين أتباع الأديان، أو القوميات، والقبائل والأحزاب، بل بين الشعوب والبلدان الجارة، إلى جانب فرض الحصار الاقتصادي، والمقاطعة، وتجميد الأرصدة الوطنية، وأيضاً الهجوم الشامل الإعلامي والدعائي.

إنّ الهدف من وراء كلّ ذلك جعل الشعوب تشعر بالتعب واليأس، والثوار بالترديد والندم، والأعداء يعلمون أنّ مثل هذه الحالة تجعل هزيمة الثورة ممكنة وميسورة؛ من خلال اغتيال النخب الصالحة والفاعلة، أو الإساءة إلى سمعة بعضهم، ومن جهة أخرى شراء ذمم العناصر الهزيلة، التي تعدّ جميعها من الأساليب المتداولة للقوى الغربية، وأدعياء التمدّن والأخلاق!!

وجدير بالذكر أنّ وثائق وكر التجسّس الأمريكي التي وقعت بيد الثورة في إيران الإسلام، أوضحت بدقّة أنّ كلّ هذه الدسائس قد خطّط لها نظام الولايات المتحدة الأمريكية. فإعادة الرجعية، والاستبداد، والحاكمية التابعة في البلدان الثورية مبدأ يجيز لهم ممارسة كلّ هذه الأساليب القذرة.

كيف نحفظ الثورة:

من المؤكد أنّ ظروف الشعوب والبلدان ليست على نحو واحد في جميع الأمور. لكن ثمّة خطوات يمكن من خلالها الحفاظ على قيم الثورة على اختلاف الظروف، منها:

التغلّب على كلّ هذه الموانع والآفات المتقدّم ذكرها، واجتيازها اجتيازاً، بالاتكال على الله، والاعتماد عليه، وحسن الظنّ بما ورد في كتابه العزيز من وعد بالنصر، والتحلّي بالتعقّل والعزم والشجاعة. فالذي نهض بعمل كبير ومصيري، لا بدّ من أن يُعدّ نفسه لتحمّل متاعب كبيرة إزاء ما حقّقه، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاءٍ وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلاءٍ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٍ...**»[١].

الحضور الدائم في ساحة المواجهة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾[٢]، وجعل الله سبحانه نصب أعيننا، والثقة بعونه ومدده: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[٣]. والحرص على أن لا تكون الانتصارات مبعث غرور وغفلة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[٤]. فهذه دعامات حقيقية لكلّ شعب مؤمن.

إعادة قراءة أصول الثورة بشكل مستمرّ. فالشعارات والأصول يجب أن تخضع للتنقيح والتطبيق مع أصول الإسلام ومحكماته. والاستقلال والحرية والعدالة، وعدم الاستسلام أمام الاستبداد والاستعمار، ورفض التمييز القومي والعنصري والمذهبي، ورفض الصهيونية رفضاً صريحاً؛ جميعها تشكّل أركان النهضات المعاصرة في البلدان الإسلامية، وهي بأجمعها مستقاة من الإسلام والقرآن.

الحذر من الاختلافات المذهبية، والقومية، والعنصرية، والقبلية، وغيرها.

(١) نهج البلاغة، خطبة ٨٨.
(٢) الشرح، ٧.
(٣) الشرح، ٨.
(٤) النصر، ١-٣.

ومواجهة ذلك بالاعتراف بالتفاوت، وتوجيهه بإدارة حاذقة؛ فالتفاهم بين المذاهب مفتاح النجاة.

إنّ إقامة النظام عمل كبير وأساس، وهو معقّد وصعب. فيجب الحذر من استيراد نماذج العلمانية أو الليبرالية الغربية، أو القومية المتطرّفة، أو الاتّجاهات اليسارية الماركسية التي تفرض فرضاً على الشعوب.

تحدّيات الشعوب الإسلامية:

يوجد بعض التحدّيات التي تواجه الثورات الشعبية الحالية في العالمين العربي والإسلامي، ومن هذه التحديات:

يُعدّ أحد أهمّ مطالب الشعوب الثائرة والمتحرّرة أن يكون لها الحضور، وأن يكون لأصواتها الدور الحاسم في إدارة البلاد.

ولمّا كانت هذه الشعوب مؤمنة بالإسلام فإنّ مطلوبها هو «**نظام السيادة الشعبية الإسلامي**»؛ أي إنّ الحكام يُنتَخبون وفق تصويت الناس، وأن تكون القيم والأصول الحاكمة على المجتمع وفق أصول قائمة على المعرفة والشريعة الإسلامية.

وهذا يمكن تحقيقه في البلدان المتعدّدة بأساليب وأشكال مختلفة؛ بمقتضى ظروفها، ولكن يجب المراقبة بحساسية كاملة؛ كي لا يختلط هذا المشروع بالديمقراطية الليبرالية الغربية. فالديمقراطية الغربية العلمانية أو المعادية للدين- أحياناً - ليس لها أيّ ارتباط بسيادة الشعوب الإسلامية الملتزمة بالقيم، وبالخطوط الأصلية الإسلامية في نظام البلاد.

إنّ التوجّه الإسلامي يجب أن لا يختلط بالتحجّر، والقشرية، والتعصّب الجاهل والمتطرّف.

فلا بدّ أن يكون الفاصل بين هذين الاثنين واضحاً. فالتطرف الديني المقرون غالباً بالعنف الأعمى هو عامل التخلّف والابتعاد عن الأهداف السامية للثورة، وهذا بدوره عامل ابتعاد الجماهير، وفي النتيجة سيكون عامل فشل الثورة.

خاتمة:

إنّ الكلام عن الصحوة الإسلامية ليس بحديث عن مفهوم مبهم غير مشخّص، ولا يقبل التأويل والتفسير. إنّه حديث عن واقع خارجي مشهود، ومحسوس ملأ الأجواء، وفجّر الثورات الكبرى، وأسقط عناصر خطرة في جبهة الأعداء، وأخرجهم من الساحة. ومع ذلك فالساحة لا تزال هشّة، وتحتاج إلى بلورة، وإلى تحقيق الأهداف النهائية.

وإذا ما أمعنّا النظر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ۝٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[1]، وجدناه مشتملاً على منهج كامل للعمل، وله الفاعلية الدائمة، وخاصّة في هذه البرهة الحسّاسة المصيرية. فالآية تخاطب النبي الأكرمﷺ، لكنّنا جميعاً في الواقع مخاطبون بها، ومكلّفون. وأول توصية في هذه الآية بالتقوى؛ بمعناها السامي والواسع، ثمّ رفض الطاعة للكافرين والمنافقين، ثمّ اتّباع الوحي، وبالتالي التوكل على الله، والاعتماد عليه.

(١) الأحزاب، ١-٣.